العنوان في ثقافتنـــا العربيـــــة

الأستاذ : لعلى سعادة
كلية الآداب و اللغات
جامعة محمد خيضر ، بسكرة- الجزائر

ملخـــــص:

يتتبع هذا الموضوع تطور العنونة في الأدب العربي انطلاقا من العصر القديم إلى فترة ما قبل ظهور الصحافة؛ إذ كانت العنونة قديما تتمظهر في عدة صور وأشكال، تارة في مطلع القصيدة وتارة أخرى في حرف الروي... لتبدأ العنونة في كسر الطوق المضروب عليها وشق طريقها بعد نزول القرآن وفي عصر التدوين، لتقطع أشواطا نحو الازدهار والتطور مباشرة بعد عصر النهضة إذ صارت فنا لها قواعدها وتقاليدها التي تحكم صنعتها شكلا ومضمونا.

Résumé :

Cette étude s'évertue à mettre en lumiére le parcours et l'evolution de la titrologie dans la littérature arabe,de l'antiquité à l'émergence du texte journalistique. La titrologie est séculaire et elle apparait sous differentes formes et figures ;en préambule à une œuvre littéraire ou en tant que sonorité finale du vers. La titrologie a disloqué le carcan qui l'enserrait afin de suivre son propre parcours dés l'apparition du Coran et de l'ére de la codification pour favoriser son épanouissement et son évolution jusqu'à la période de la renaissance et l'émergence du journalisme qui lui octroient ses lettres de noblesses et en font un véritable art avec ses régles et ses codes régissant la production formelle et sémantique du titre.

العنونة و تمظهراتها

لعل الشعر العربي القديم ـ في عصوره الأولى ـ أفضل مثال للتجربة الثقافية الشفاهية، فقد استغنى العرب قديما عن العنونة لأسباب عديدة، فمنهم من يرجعها إلى "أن القدماء كانوا يستعجلون سماع القصيدة أولا."[1] و هذا ما جعل الشعراء ينزلون عند رغبتهم ويعجّلون بإلقاء القصائد على مسامعهم خالية من العنوان. و منهم من يرى أن القدماء كانوا يتركون القصيدة "حرة في اختيار مسار رحلتها، مهما كان هذا المسار محددا بمعايير النقاد. هي القصيدة، جغرافية متعددة المواقع و الأضلاع، لها كل الأسماء والعناوين الممكنة."[2]

أما " محمد عويس " فيرى "أن العرب آنذاك أمة ناطقة تعتمد على اللسان الناطق في أمور حياتها المنوعة أكثر من اعتمادها على ترجمة اللسان الناطق إلى مداد مدون. و من ثم كان الذوق الأدبي في هذا العصر الأدبي ذوقا يقوم على حسن تقدير الأصوات المسموعة المعبرة عن المشاعر تعبيرا صوتيا / موسيقيا، جذابا."[3]

فقد احتمى الشعر العربي بخصائصه الإيقاعية والصوتية من قافية أو استهلال لفظي ليصنع منها عنونته، سواء وهي تنسب إلى شاعرها فيقال مثلاً ميمية عنترة، أو بائية النابغة: أو وهي تشير إلى مكانتها فيقال: لامية العرب، أو بفرادتها وهي اليتيمة.*

وربما خرجت بعض النصوص الشعرية عن ذلك فارتبطت بمناسبة أو بظرف ما كقولهم: معلقة امرئ القيس، معلقة طرفة بن العبد، معلقة عمرو بن كلثوم...أو حوليات زهير بن أبي سلمى وسواها."وقد تتحول تلك النسبة إلى العنوان الموضوع، فتغدو خمرية أو غزلية، وكل ذلك خاضع لعوامل مختلفة شهدها النص خلال تحولاته من الشفاهي إلى المكتوب."[4]

من الواضح أن العربي قبل الإسلام لجأ في تسمية قصائده والتعريف بها إلى العنونة غير المباشرة وذلك يعود ـ حسب محمد عويس ـ إلى أن " الشاعر ينشد قصيدته إنشادا، وفي هذا الإنشاد إعلام وعنونة ذاتية غير مباشرة خاصة إذا عرفنا أن الشاعر قد يرتدي زيًّا بعينه حين يريد إنشاد قصيدة بعينها في موضوع بعينه، مثل قصائد الهجاء. وهذا

الزي يعد شبيها بالعلَم أو الراية التي تعنون شيئا مميزا، وكان الشاعر في كثير من الأحيان ينشد القصيدة في محفل من محافلهم أو مجلس من مجالسهم، وقد يلقيها في سوق من أسواقهم الأدبية مثل سوق عكاظ ومن ثم يوفر له هذا أو ذاك تعريفا كافيا به وبقصيدته وهو تعريف يؤدي هدفا من أهداف الغاية من العنوان في القصيدة المعاصرة."[5]

قد يكون هذا التفسير صحيحا إلى أبعد مدى إذا أضفنا أن العربي منشغل بالحروب والترحال عن الكتابة والتدوين، إلى جانب " تعدد الموضوعات الشعرية في القصيدة الواحدة، وتعدد الموضوعات يؤدي إلى صعوبة اختيار عنوان واحد للقصيدة، فكيف يمكن تحديد عنوان واحد لقصيدة من القصائد ذات الموضوعات المتعددة من مثل معلقة زهير بن أبي سلمى المطولة وما شاكلها من قصائد في العصر الجاهلي وما وليَه من عصور أدبية؟ "[6]

و يمكن اعتبار هذا السبب من أبرز عوامل انعدام العنوان المباشر في القصيدة العربية القديمة لأن القصيدة المتعددة الأغراض يصعب عنونتها وكل محاولة لإعطائها عنوانا " قد يكون عدوانا على النص."[7]

القصيدة العربيـة ورفض الاستسلام لعدم التعييـن:

لم تستسلم القصيدة العربية لقدرها المحتوم ورفضت أن تعيش بلا اسم، فراحت تكسر المألوف، وتخرق الذاكرة الجماعية، معلنة عن تمردها على الأعراف، وكسر الجغرافيا المحددة، وبدأت تخرج من "اللاتسمية" إلى "التسمية والتعيين"، فإذا نحن أمام قصائد سميت باسم حرف رويّها؛ فحرف واحد يهيمن على مجموع النص، أو تسمى باسم من اختارها، مثل: المفضليات و الأصمعيات، وإن كان في ذلك إجحاف، لأن القصائد تشير إلى الشخص الجامع قبل المؤلف المبدع!

ولا يمكن أن نتغافل عن تسمية بعض الشعراء القدامى لقصائدهم والتي أوردها المستشرق كارل بروكلمان في كتابه: تاريخ الأدب العربي، نورد بعضها حسب الترتيب الزمني لوفاة أصحابها:

1- القصيدة الفزارية، لأبي القاسم محمد بن عبد الله الفزاري، (ق4هـ).

2- قصيدة المنفرجة أو الفرج بعد الشدة، لأبي الفضل يوسف بن محمد التوزري، (513هـ،1119م).
3- القصيدة البسامة"البشامة" بأطواق الحمامة، لأبي المجيد بن عبدون، (520هـ،1126م).
4- القصيدة التترية، لأبي الحسين أحمد بن منير الطرابلسي الرفاء، (548هـ،1153م) .
5- معرة البيت، لأبي الحكم عبيد الله الباهلي المري، (549 هـ ،1154م).
6- الخمارطشية ، لأبي الحسن بن أحمد خمارطش ،(554هـ ، 1159م).
7. بستان العارفين في معرفة الدنيا والدين، لمجد محيي الدين جمال الإسلام محمد بن أبي بكر الوتري (662هـ ، 1264م).
8- صفوة المعارف، لأبي المعالي سعد بن علي الخطيري،(568 هـ،1172م).
9- تذكرة الأريب وتبصرة الأديب، لمجد الدين محمد بن أحمد بن الظهير المراكشي الأربلي، (676 هـ، 1277م).
10. القصيدة الألفية المقصورة، لأبي الحسن حازم القرطاجني، (684هـ،1285م).
11.الكواكب الدرية في مدح خير البرية(وتسمى البردة)، لشرف الدين أبي عبد الله (أبي علي) محمد بن سعيد البوصيري الصنهاجي، (694هـ ،1296م).
12.الصارم القرضاب في نحر من سب أكارم الأصحاب، لعثمان بن سند المكي، (1217هـ،1802م).[8]

القراءة الأولية لما تمّ عرضه تبرز ظهور أغلب العناوين في القرن السادس الهجري، وهي فترة عرفت فيها بنية الشعر العربي القديم تحولات وتغيرات، أثرت في الإنتاج الإبداعي لاحقا. كما أن هذه الفترة تميزت بانتشار العناوين المسجوعة.

إن أسباب عدم ظهور العنوان المباشر في القصيدة العربية القديمة تحمل في مضمونها بعض مظاهر العنونة غير المباشرة، أوردها محمد عويس في كتابه "العنوان في الأدب العربي، النشأة والتطور "، ألخصها في الآتي:

أ -"إن كنية الشعراء وألقابهم مظهر من مظاهر العنونة غير المباشرة الدالة عليهم وعلى شعرهم، وكأن المتلقي كان يستند على كنية الشاعر أو لقبه في معرفة شعر الشاعر،

فالكنية أو اللقب عنوان غير مباشر يدل ويرشد إلى شعر الشاعر. ومن المصنفات في هذا الصدد: كتاب " من نسب إلى أمه من الشعراء " لمحمد بن حبيب، وكتاب" تحفة الأبية في مَن نُسب إلى غير أبيه" لمجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروز آبادي...

ب ـ بعض الشعراء عرفوا بصفات جسدية أو فنية، كانت أشبه بعنوانات عليهم وعلى شعرهم ،من ذلك طائفة " أغربة العرب"من الشعراء وهم الذين لقبوا بذلك لشبههم بالغربان في السواد،كـ: عنترة وخفاف بن ندبة السلمي،وسليك بن السلكة وتأبط شرا والشنفرى... وأما الصفات الفنية، منها نبوغ طائفة من الشعراء في سن متقدمة على غير العادة، فعرفوا باسم النوابغ، كـ : النابغة الذبياني والنابغة الجعدي، والنابغة الشيباني.

ج ـ تسمية بعض القصائد بأسماء بعينها تعد عنوانات دالة عليها، المطولات، المعلقات،النقائض، هاشميات الكميت، وسيفيات أبي الطيب وكافورياته، ولزوميات أبي العلاء، ورروميات أبي فراس...

د ـ شيوع بعض القصائد بمناسبة نظمها، فيقال: قال فلان مادحا، وقال يهجو...ونجد ذلك أيضا في فن الخطبة، إذ لم نسمع عن خطبة اتخذت لها عنوانا بمعرفة صاحبها إلا في حالات نادرة، مثل ما نعرفه عن خطبة زياد المعروفة باسم الخطبة البتراء، ولم يكن زياد هو صاحب هذا العنوان الذي عرفت به خطبته.

هـ ـ ظهور عنوانات عامة لبعض مجاميع المختارات الشعرية المصنفة في عصر التدوين، مثل عنوان مجاميع الحماسة لأبي تمام والبحتري وغيرهما "[9].

إن غياب العنوان المباشر في الإبداع القديم مؤشر على غياب التدوين، إضافة إلى ذلك فإن المعارف لم تكن كثيرة ولا متنوعة لكي تدفع إلى التدوين الشامل والتصنيف الدقيق وهذا ما يكشف العلاقة بين الأدب والجمهور آنذاك فلكل عمل جمهوره التاريخي والاجتماعي المحدد ، "وأن كل مبدع هو نتاج نظرة جيله أو إيديولوجية متلقيه ،وأن النجاح الأدبي يستدعي كتابا يعبر عما يتوقعه الناس من الكاتب ، أو كتابا يقدم الناس في صورة معينة"[10].

الفتوحات الجديدة للعنوان .. و بدايـة الانتعـاش:

دخل العنوان في الأدب العربي مرحلة التطور بمجيء الإسلام، حيث تم جمع القرآن الكريم وتدوينه وتمييز السور بعضها عن بعض وذلك بكتابة العناوين على رأس كل سورة إشادة بأسمائها وما فيها من آيات مكية ومدنية، وكان ذلك مثارا لمعارضة قوية في أوساط الرافضين لفكرة العنونة وتمييز السور، فكثيرون يعتقدون أن هذه الأمور ليست توقيفية بل للصحابة فيها نصيب غير قليل من الاجتهاد، وهذا الاختلاف هو الذي أثار تلك المعارضة المحتدمة ما لبثت أن خفّت لجاجتها، "ولم يكتف الناس بكتابة تلك العناوين، بل طفقوا يتفننون في تنميقها وتذهيبها حتى أوشك الجهّال أن يعتقدوا أنها جزء لا يتجزأ من الوحي القرآني"[11].

وقد سمى الله ـ عز وجل ـ كتابه: (القرآن الكريم)، قال تعالى:﴿ **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ** ﴾[12]

ويدلنا المولى ـ عز وجل ـ إلى أسماء أخرى وسم بها كتابه الكريم، هي ـ في مجملها عناوين دالة على صفات القرآن الكريم، ومن هذه الأسماء، الكتاب المبين، النور المبين، كلام الله ، الفرقان ، البصائر، البيان ، التذكرة ...

" و قد ثبت أن جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار."[13] ولقد كان اختيار اسم السورة / عنوانها مبنيا على ما اشتملت عليه من مضمون أساس كثُر ذكره فيها أو على ما ورد فيها من نادر أو مستغرب؛ وهذا أو ذاك يحقق الصلة بين عنوان السورة وما جاء في سياقها من بعض الدلالات التي يمكن إبرازها من خلال العنوان، ومن ثم ورد لبعض السور أكثر من عنوان واختص البعض الآخر بعدم تعدد العنوان.[14]

وقد علل الزركشي في كتابه:"البرهان في علوم القرآن " عنونة السور في القرآن الكريم بقوله: " كانت العرب تراعي في كثير من المسميات أخذ أسمائها من نادرٍ أو مستغرب يكون في الشيء من خُلق أو صفة تخصه، ويسمون الجملة من الكلام أو القصيدة بما اشتهر فيها، وعلى هذا جرت أسماء سور القرآن، كتسمية البقرة بهذا الاسم لقرينة قصة البقرة المذكورة فيها، وعجيب الحكمة فيها، وسميت سورة النساء بهذا الاسم لما

تردد فيها شيء كثير من أحكام النساء، وتسمية سورة الأنعام لما فيها من تفصيل أحوالها، وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها، إلا أن التفصيل الوارد فيها لم يرد في غيرها.[15]

أما جلال الدين السيوطي، فيطرح سؤالا يتصل بهذه القضية، يقول: " ولك أن تسأل فتقول: قد سُمّيت سور جرت فيها قصص أنبياء بأسمائهم... وقصص أقوام كذلك... ومع هذا كله لم يفرد لموسى سورة تسمى به مع كثرة ذكره في القرآن حتى قال بعضهم: كاد القرآن أن يكون كله موسى؛ وكان أولى أن تسمى به سورة طه أو القصص أو الأعراف لبسط قصته في الثلاثة ما لم يبسط في غيرها، وكذلك قصة آدم، ذُكرت في عدة سور، ولم تسمَّ به سورة، وكأنه اكتفاء بسورة الإنسان، وكذلك قصة الذبيح من بدائع القصص ولم تسمَّ به سورة الصافات وقصة داود ذكرت في سورة "ص" ولم تُسمَّ به."[16]

وإجمالا، فإن أسماء السور / عناوينها، ثبت بالتوقيف من الأحاديث والآثار، وأن هذه العناوين تستند إلى إشارات ودلالات بعينها في سياق السور، وهذا يعتبر علامة بارزة في صياغة بنية العنوان.[17]

و قد دفعت عناوين القرآن الكريم إلى التطور في عنونة المصنفات منذ ظهورها، ولا زالت معانيه الكريمة ينبوعا ثريًّا يستلهم منه كثير من المؤلفين عناوين مؤلفاتهم حتى تخرج في أحسن صورة وأجمل صياغة.

كما مكنت أسماء القرآن الكريم وعناوينه من التطور في صناعة العنوان صناعة تتسم بالإعجاز والإيجاز، " فإن أسماء سوره الكريمة وعنواناتها مكّنت من التطور في اتجاه العنوان المناسب للنص."[18]

عمل تدوين القرآن الكريم على ظهور المدونات في الحياة الإسلامية ، وهذا ما كان له أثره المباشر في تطور العنونة ؛ فقد ألفت مصنفات كثيرة في علوم القرآن وقراءاته، في العصرين الأموي والعباسي ، نذكر منها :(كتاب اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق) لعبد الله بن عامر اليحصبي، و(كتاب قراءة أبي عمرو) رواه اليزيدي. و(كتاب القراءة) و(كتاب المقطوع والموصول في القرآن) لحمزة بن حبيب الكوفي، و (كتاب المصاحف) لابن أبي داود السجستاني ، و(كتاب المجاز) لأبي عبيدة، و(كتاب نظم القرآن

) للجاحظ، و(كتاب المسائل في القرآن) للجاحظ ، و(كتاب أحكام القرآن) لأبي بكر الرازي[19] ...وغيرها كثير.

وتبرز هذه المدونات الدقة في العنوان، إذ تشير هذه العناوين إلى مضمون المدونات ، فلا مجال لازدواجية العنوان أو غموضه. كما نلاحظ أن لفظة (كتاب) ملازمة لهذه العناوين، وأحيانا يعبر العنوان عن أكثر من مضمون انسجاما مع المحتوى. كما أن هذه العناوين بعيدة عن تأثير اللغات الأجنبية في صياغتها.

وإذا انتقلنا إلى علوم الحديث، فإننا نجد أن العنونة قد تطورت بتطور التدوين في علوم الحديث النبوي، فالتطور كان في مضمون المصنفات التي أثّرت بدورها على العنونة تأثيرا مباشرا، وعند استعراضنا لبعض عناوين المدونات في مراحل كل من : الجمع والتأليف والشروح، نتبين أثر التطور في مضمون المدونات على التطور في مضمون العناوين. وفيما يأتي نماذج عناوين المدونات في المراحل الثلاث المذكورة:

ـ الصحيفة " الصادقة " لعبد الله بن عمرو بن العاص.
ـ صحيفة سمرة بن جندب (ت 60هـ ، 679م)
ـ صحيفة همام بن منبه.
ـ حديث الزبير بن عدي وهو أبو عدي الزبير بن عبديي الهمذاني الكوفي.
ـ حديث أبي العشراء الدارمي، وهو أسامة بن مالك بن قهطم أبو عطارد بن بكر.
ـ "كتاب السنن" لابن جريج ، عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج .
ـ كتاب "الجهاد" وكتاب "المسند" وكتاب "البر والصلة" لعبد الله بن المبارك.
ـ "كتاب الدعاء" و"كتاب الزهد" لأبي عبد الرحمن محمد بن فضل.
ـ "الجامع الصحيح" و"التاريخ الكبير" و"التاريخ الأوسط" للإمام البخاري.
ـ "كتاب الكنى والأسماء" و"كتاب المنفردات والوحدان" للإمام مسلم.
ـ سنن ابن ماجة ،وأبي داود والترمذي، والنسائي.
ـ المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع لابن حبان البستي.

ـ ذكر أسماء التابعين ومن بعدهم ممن صحت روايته من الثقات عند محمد بن اسماعيل البخاري، للدار قطني.[20]

تبدو بنية العنوان في معظم هذه المدونات بسيطة وتعبر عن المضمون بشكل مباشر، ونلاحظ غلبة ألفاظ :"صحيفة " و"كتاب" و"حديث" على معظم عناوين المصنفات، كما أن بعض العناوين طويلة وذلك حتى تفي بالمعنى المقصود من مضمون المدوّنة .

ونسجل نفس الملاحظات ـ تقريبا ـ في المدونات الأدبية، غير أن اللغة الأدبية هي السائدة فيها قصد تحقيق غايات فنية وجمالية .

العنوان وعصـــر التدويـــن:

تطورت حركة التأليف في التراث العربي فأدى انتشار الرسائل ذات الموضوع الواحد ـ في منتصف القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ـ إلى ظهور مؤلفات جامعة متعددة الأجزاء مصنفة الموضوعات ، وهي كتب المصنف ، وظهرت كتب المختارات الشعرية المصنفة في نفس الفترة التي تطورت فيها حركة التأليف في فروع التراث الأخرى (كتب المعاني ، كتب المناقب والمثالب ، كتب النقائض ، كتب مختارات الشعر،كتب الحماسة، كتب الأمالي وكتب النوادر، وكتب الطبقات وكتب تراجم الشعراء) .

وعلى الرغم من أن هذه المصنفات تعتمد على الشعر وتذوّقه ، وفهم معانيه وشرح ما غمض من ألفاظه وتراكيبه، إلا أن عناوينها لم تكن مطبوعة بغير طابع اللغة العلمية.

ونلاحظ غلبة اللغة العلمية والبساطة في عنونة جميع المختارات المصنفة(كتاب المثالب للهيثم بن عدي ، كتاب الكلبيات ، كتاب الفطميات لعلي بن محمد المدائني...)، ولا تميل العناوين إلى الزخرفة الفنية إلا في بعض الشروح الخاصة ببعض هذه المصنفات ، وفي بعض كتب الأدب.[21]

أما مجموعات الأشعار المختارة والأبيات المفردة والمقطعات، فإن النزعة الفنية تغلب على عناوينها لأن مثل هذه المجموعات صنّفت بغرض اختيار عيون الأشعار، تنمية للذوق

الأدبي لدى المتلقين وللإفادة من هذه النماذج في مختلف أوجه الحياة،(كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصفهاني، المنتهى في الكمال لمحمد بن سهل بن المرزبان الكرخي...)[22]

ويتجلى أثر تطور العنوان في عدة أمور منها: تنظيم وترتيب المكتبة ، وآداب التعامل مع الكتاب، ونهج الكاتب في الإشارة المباشرة إلى مصادره، إضافة إلى نقل الآثار الأجنبية؛ فتنظيم وترتيب المكتبة له تقاليده، وللعناوين دور أساس في هذا التنظيم، حيث يراعى في هذا التنظيم ترتيب المدونات حسب أقسام العلوم(عناوينها). أما التعامل مع الكتاب، فإن العنوان هو الوسيلة إلى ما يحتاج القارئ إلى شرائه أو استنساخه،أواستعارته أو استئجاره .[23]

ولا شك أن تنظيم وترتيب المكتبة، وأدب التعامل مع الكتب، أفضت إلى انتهاج الكاتب نهجا واضحا في الإشارة إلى مصادره وآثاره في كتبه، وهذه الإشارة أشبه بما يضعه الكاتب المعاصر من قائمة مصادره ومراجعه في نهاية كتابه، ودليلنا على ذلك ما فعله الجاحظ في مقدمة كتابه " الحيوان "، وما فعله المسعودي في مقدمة كتابه " مروج الذهب ".

ويمكن القول، إن معالم وآفاق العنونة في تراثنا العربي بدأت تتضح وتنتظم في العصر العباسي باحتكاك العرب بالأجناس الأخرى ؛ إذ ظهرت عناوين ناضجة من قبيل: "الأدب الصغير" و "الأدب الكبير" لعبد الله بن المقفع، "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني، "البيان والتبيين" و "البخلاء" و "الحيوان" و"رسالة التربيع والتدوير"للجاحظ، "المزهر في علوم اللغة وأنواعها" لجلال الدين السيوطي، "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني، "أدب الكاتب" لابن قتيبة الدينوري، وغيرها كثير... وتبع ذلك مؤلفات في مجال الدراسات اللغوية، مثل: "كتاب العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي، و"كتاب المحيط" للصاحب بن عباد، و"تاج العروس" للمرتضى الزبيدي، و" قطر الندى وبل الصدى " لابن هشام الأنصاري، و"لسان العرب " لابن منظور، وسواها كثير...

ومنذ انتشار التدوين انتشرت خزائن الكتب، فكانت هناك المكتبات الرسمية للدولة، وهي أشبه بما يعرف بالمكتبات الوطنية في عصرنا الحاضر . ومن هذه المكتبات

التي أصبحت مشاعل للفكر الإنساني" بيت الحكمة" في عصر المأمون. وهناك المكتبات الخاصة للأفراد المعنيين بالنشاط الفكري، والمكتبات الموجودة في قصور الخلفاء، والتي كان يباح للناس دخول بعض أقسامها. وكان بعض الناس يكتري دكاكين الوراقين ليمكث فيها ليلا يقرأ ما يحتاج من كتبها، كما هو معروف عن الجاحظ.[24]

وقد ساهمت هذه المكتبات في تطوير الملكات العلمية والثقافية في المجتمع وفي صقل الأذواق الفنية والجمالية حتى صار تنظيم المكتبات وترتيبها وتنسيقها علما قائما بذاته، وهذا ما انعكس بوضوح على تطور العنوان، حيث صار" منهجا وسلوكا واضحا في عصر التدوين."[25]

عرف العنوان في الآداب العربية ، خلال عصر التدوين ، تطورا مشهودا فاق ما كان عليه العنوان في الآداب العالمية القديمة شكلا ومضمونا ؛ فقد كان العنوان العربي التراثي علامة مضيئة في عنونة مدونات الفكر الإنساني عامة إلى أوائل عصر الطباعة، واتجه العنوان التراثي العربي في مرحلة الشروح (آخر مرحلة التدوين) إلى شكل فني اتخذ من السجع ركيزة في بنية العنوان، وأثر هذا الشكل الفني في العنوان، وسيطر على العنونة لسنوات حتى بعد دخول المطبعة إلى المشرق العربي، فلم تقتصر سيطرته على عناوين المؤلفات العربية، بل امتدت إلى المؤلفات المترجمة إلى العربية.

عطر التراث في العنونة العربية :

وبعد دخول المدونات الشعرية عصر الطباعة، مع غيرها من المدونات والمطبوعات، بدأت تظهر بواكير العنونة في الأعمال الشعرية، وكانت العناوين الخاصة بالأعمال الشعرية في أواخر القرن التاسع عشر تميل إلى السجع ثم ما لبثت أن تخلصت منه، فمن العناوين المسجوعة[26]:

- روضة الأدب في طبقات شعراء الأدب، شعر لإسكندر آغا، طبع سنة 1858
- نزهة النفوس وزينة الطروس ، شعر لإسكندر آغا ، طبع سنة 1883.
- القلائد الدرية في أساليب الحرية، شعر للشيخ محمد الأبراشي، طبع سنة 1892
- الدر البهي المنسوق بديوان الأديب إبراهيم بك مرزوق، شعر، طبع سنة1897

وقبل ذلك كانت عناوين المدونات النثرية خلال القرن التاسع عشر، مثقلة بقيود السجع، وهذه بعض النماذج :

ـ تخليص الإبريز في تلخيص باريز، قصة لرافع رفاعة الطهطاوي ، طبعت سنة 1834.

ـ كتاب الساق على الساق فيما هو الفارياق، سيرة ذاتية لأحمد فارس الشدياق، طبعت سنة 1855.

ـ مواقع الأفلاك في مغامرات تليماك، قصة مترجمة لرافع رفاعة الطهطاوي، طبعت سنة 1867.

ـ الهيام في فتوح الشام، قصة لسليم البستاني، طبعت سنة 1874.

ومع بداية القرن العشرين، وانتشار الصحافة وتطور الطباعة، وتأثير الثقافة الغربية الوافدة ، انتعشت العنونة معلنة عن تدشين عهد جديد من القطيعة مع الماضي، فظهرت عناوين "مبتكرة " اختلفت معماريتها من جنس أدبي إلى آخر ؛ فعنوان القصيدة يختلف عن عنوان الرواية وعنوان المسرحية يختلف عن عنوان المقالة وهكذا.

وإذا استعرضنا نماذج من العناوين الحديثة وجدناها تمثل إرهاصات عصر العنونة، ومن أمثلة هذه العناوين:

ـ الأرواح المتمردة (قصة) لجبران خليل جبران ، صدرت سنة 1908.

ـ زينب (رواية) لمحمد حسين هيكل ، صدرت سنة 1914.

ـ دمعة وابتسامة (شعر) لـ مي زيادة ، صدر سنة 1920.

ـ سوانح فتاة (شعر) لـ مي زيادة ، صدر سنة 1921.

ـ كلمات وأشعة (شعر) لـ مي زيادة ، صدر سنة 1923.

ـ الجداول (شعر) لإيليا أبي ماضي ،صدر سنة 1927.

ـ ثمن الضعف (قصة) لنجيب محفوظ ، صدرت سنة1934 .

ـ خيوط العنكبوت (قصة) لإبراهيم عبد القادر المازني ،صدرت سنة 1935.

ـ الخمائل (شعر) لإيليا أبي ماضي ،صدر سنة 1940.

ـ دعاء الكروان (قصة) لطه حسين ، صدرت سنة 1942.

ـ غادة أم القرى (قصة) لأحمد رضا حوحو ، صدرت سنة 1947.
ـ أبو الهول يطير (قصة) لمحمود تيمور، صدرت سنة 1947.
ـ شظايا ورماد (شعر) لنازك الملائكة ، صدر سنة 1949.
ـ أنت لي (شعر) لنزار قباني ، صدر سنة 1950.
ـ حياتي (سيرة ذاتية) لأحمد أمين ، صدرت سنة 1950.
ـ الحريق (رواية) لمحمد ديب ، صدرت سنة 1954.
ـ أنشودة المطر (شعر) لبدر شاكر السياب ، صدر سنة 1960.
ـ أنا (سيرة ذاتية) لعباس محمود العقاد ، صدرت سنة 1965.

قراءة هذه العناوين تبيّن التّحول الجذري في نمط وبناء العنوان، إذ لا وجود للعناوين المسجوعة، المتكلّفة إنما هي عناوين بسيطة، لكنها انفجارية وشديدة الإيحاء. كما نلاحظ حضور إسهام المرأة في العنونة، وتجلي بصماتها المميزة فيها؛ فعناوين " مي زيادة " ذات وقع مؤثر يناسب إحساس المرأة المرهف. و هو ما يوافق طورا جديدا من أطوار العنونة في الثقافة العربية .

الهوامش و المراجع

(1) رشيد يحياوي:الشعر العربي الحديث، دراسة في المنجز النصي،أفريقيا الشرق، 1998، ص107.

(2) محمد بنيس:الشعر العربي الحديث، " بنياته وإبدالاتها " 1.التقليدية،دار توبقال للنشر،الدار البيضاء ،المغرب، 2001، ط2،ص102.

(3) محمدعويس:العنوان في الأدب العربي، النشأة والتطور،مكتبة الأنجلو المصرية، 1408هـ ،1988م ، ط1،ص46.

* وهو ما تعرف به قصيدة سويد بن أبي كاهل اليشكري، والتي مطلعها:

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع

(4) معجب العدواني:تشكيل المكان وظلال العتبات،النادي الأدبي الثقافي،جدة،المملكة العربية السعودية، 1423هـ،2002م، ط1، ص14.

(5) محمدعويس:العنوان في الأدب العربي ،النشأة والتطور، ص49.

(6) المرجع نفسه،ص51.

(7) مصطفى ناصف:اللغة والتفكير والتواصل،سلسلة عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،الكويت،1995، ص77.

(8) محمد بنيس: الشعرالعربي الحديث، بنياته وإبدالاتها ـ 1.التقليدية، ص ص103، 104.

(9) ينظرمحمد عويس:العنوان في الأدب العربي،النشأة والتطور،ص 52 وما بعدها.

(10) يوسف نورعوض:نظرية النقد الأدبي الحديث،دار الأمين للنشر والتوزيع، 1994، ط1، ص56.

(11) صبحي صالح: مباحث في علوم القرآن،دار العلم للملايين، بيروت،لبنان،1981، ص98.

(12) سورة الواقعة، الآيات: 77، 78، 79.

(13) جلال الدين السيوطي:الإتقان في علوم القرآن، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم،مكتبة دار التراث،القاهرة ، 1387هـ ،1967م، ج1، ط1، ص150.

(14) محمد عويس:العنوان في الأدب العربي،النشأة والتطور، ص88 .

(15) بدر الدين الزركشي:البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،مكتبة دار التراث،القاهرة,(د.ت)،مج1،ص 274،273.

(16) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن،ج1 ، ص161.

(17) محمد عويس: العنوان في الأدب العربي، النشأة والتطور، ص90.

(18) نفسه، ص88.

(19) نفسه،ص 109،88.

(20) السابق،ص 114 وما بعدها.

(21) نفسه،ص 138،132.

(22) نفسه،ص 138.

(23) نفسه، ص 157.

(24) نفسه، ص 154، 155.

(25) نفسه، ص159.

(26) نفسه، ص224.